

كفاح العرب السياسى ضد الصهيونية

للدكتور محمد عوض محمد بك

عندما أخذت الحركة الصهيونية تنظم شئونها ، وتكيف برنامجها فى أواخر القرن
الماضى ، كان كثير من الأقطار العربية خاضعاً للحكم العثمانى ، وكان يبذل جهده للخلاص
من نير ذلك الحكم ، فكان الهدف الأول الذى وجهت إليه الجهود الوطنية أن تنال البلاد
العربية حريتها واستقلالها . وعلى الرغم من أن مطامع الدول الاستعمارية لم تكن خافية على
العرب ، والخطر السامن وراء الدعاية الصهيونية آخذ فى الظهور ، فإن المظالم التى صاحبت
الحكم العثمانى كانت هى الحقيقة الماثلة أمام الشعوب العربية ، تحسها فى كل يوم ، وتطالع
آثارها فى كل لحظة . فلم يكن بمستغرب أن أول ما عنيت به الحركة الوطنية هو التخلص
من الحكم العثمانى ، وإقامة حكومات عربية مستقلة .

ولكن هذا السعى إلى الاستقلال ، كان يشتمل على شىء من الكفاح ضد الصهيونية .
فإن الحكم العثمانى أجاز إنشاء كثير من المستعمرات الصهيونية . وسمح لها أن تنمو وتترعرع
فى ظله . ففى عام ١٨٦١ مسموح لليهود بإنشاء مدرسة زراعية بالقرب من يافا ، لتخريج زراعى
للمستعمرات الزرع إنشاؤها ؛ وقد أسست لهذا الغرض جمعية فى إنجلترا يهيمن عليها البارون
إدمند دى روتشيلد ، واستطاعت أن تؤسس سبع مستعمرات ما بين عامى ١٨٨٣ و ١٩٠٠ ،
وأكثرها بجوار يافا وحيفا والقدس . وبفضل هذه المستعمرات زاد عدد اليهود فى فلسطين
من ٢٥٠٠٠ فى سنة ١٨٨١ إلى ٨٠٠٠٠ فى عام ١٩١٤ .

هؤلاء المهاجرون لم يكونوا قانمين بالحياة فى فلسطين أسوة بسائر سكانها ، بل أخذوا
ينشئون مدارسهم ويستخدمون فيها اللغة العبرية ، وكانت لهم منشآتهم الخاصة ، وعملتهم
التي يتداولونها ، وعما كهم التي يحتكون إليها ، وكانوا ينفرون من بقية السكان ، ويميشون
كأنهم دولة وسط الدولة .

هكذا ولدت الصهيونية الفلسطينية تحت ظل الراية العثمانية ، ولم تفعل الدولة شيئاً
لكبح جماحها ، ودفع شرورها ؛ فلا عجب إن كان بنص الصهيونية جزءاً من بنص التسلط

التركي والحكم العثماني ، وكان المجهود الجبار الذي بذله العرب لنيل حريتهم أثناء الحرب العالمية الأولى هو بداية الكفاح العربي ضد الصهيونية .

وفي وسعنا أن نقسم هذا الكفاح إلى أربع مراحل : الأولى الثورة العربية على الحكم العثماني ، والثانية كفاح الاستعمار الأوربي الذي آوى الصهيونية وجعلها تحت رعايته ، والمرحلة الثالثة تمثل تضامن الأقطار العربية لنصرة فلسطين من عام ١٩٣٩ إلى تأسيس جامعة الدول العربية . والمرحلة الرابعة هي الكفاح المنظم تحت ظل الجامعة وقيادتها . وسنتناول كلاً من هذه المراحل الأربع بشيء من الوصف .

١ — الثورة العربية

تولى الشريف حسين بن علي قيادة الحركة العربية من مركزه في مكة أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولم يكن الإنجليز أول الأمر راغبين في مثل هذه الحركة ، لأنهم خشوا أن تحول بينهم وبين تحقيق مآربهم في الشرق العربي . غير أن هزيمتهم الأولى في العراق ، وسير الحرب في أوروبا ، أتاحا الفرصة لجماعة من أنصار العرب من البريطانيين من أمثال لورنس ، ومن على شاكته ، فطلبوا من الحكومة البريطانية أن تؤيد الثورة العربية وتشد أزرها . من أجل ذلك دارت تلك المفاوضات بين الشريف حسين وبين مندوب بريطانيا في مصر المدعو هنري مكماهون ، وقد تبادل فيها الطرفان نحو عشر رسائل . ونظراً لأن هذه الرسائل تشتمل على ركن هام من الكفاح العربي ضد الصهيونية فلا بد لنا أن نورد هنا خلاصتها .

كتب الشريف حسين في ١٤ يولييه سنة ١٩١٥ يبلغ المندوب السامي البريطاني في مصر تصميم الأمة العربية على نيل حريتها واستقلالها ، واستعدادها لأن تساهم في تحرير الأقطار العربية من العدو المشترك ، على شرط أن تعترف الحكومة البريطانية باستقلال البلاد العربية التي تحد شمالاً بخط يبدأ من مرسينا ويمتد إلى أطنه وأرفا ومردين ، وجزيرة ابن عمرو إلى حدود إيران ، وتحد شرقاً بالحدود الإيرانية وخليج البصرة ، وجنوباً بالبحر الهندي فيما عدا عدن ، التي تظل على حالها التي كانت عليها ، وغرباً بالبحر الأحمر والبحر المتوسط لغاية مرسينا .

رداً على هذا الكتاب أرسل المندوب السامي البريطاني خطاباً في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ يقول فيه إن إقليم أطنه ومرسينا ، والأراضي الواقعة غرب دمشق وحمص وحماة وحلب ليست عربية صرفة ، ولذلك يجب أن تستبعد من الحدود المذكورة ، أما فيما عداها فإن الحكومة البريطانية تقبل أن تكون الحدود كما وضعاها الشريف حسين ، وهي مستعدة لتأييد استقلال العرب داخل تلك الحدود .

وقد قبل الشريف حسين استثناء أوطنه ومرسينا ، ولكنه أصر على أن سواحل سوريا الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب ، كلها أقطار عربية صرفة ، وأن من فيها من النصاري لا يفلون في عروبته ووطنيتهم عن المسلمين ، وأنه لذلك يصّر على المطالبة بأن تظل هذه الأقطار جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربي .

وقد حاول المندوب البريطاني بعد ذلك أن يشرح للشريف حسين أن موضوع تلك الجهات أمر لا تملك بريطانيا أن تبني فيه وحدها ، لما لفرنسا فيه من مصالح ، لا بد لبريطانيا من مراعاتها حرصاً على بقاء الوحدة بين الدولتين في كفاحهما المشترك ، غير أن الشريف أصرّ على موقفه ، وقال إنه يحتفظ بحق العرب في تلك الجهات بعد أن يتم النصر للحلفاء . لهذه الرسائل شأن كبير في مشكلة فلسطين ، فقد حاولت بريطانيا أن تفسر نصوصها بأن الأقطار الواقعة غرب دمشق تشمل فلسطين ، فكان دفاعها في هذه النقطة بادي الضعف لأن هذه الرسائل لم تشر بكلمة واحدة إلى فلسطين أو إلى الصهيونيين . ولم يجر فيها إلا ذكر الجهات التي تزعم فرنسا أنها تهتمها ، ولا يستطيع إنسان عاقل أن يزعم أن مدينة القدس أو نابلس أو طبرية واقعة إلى الغرب من دمشق .

لم يكن وعد بلفور قد صدر بعد ، أو لاحت طلائمه في الأفق ، ولذلك لا نستطيع أن نلوم الشريف حسين أو مستشاريه ، لأنهم لم يصروا على بيان أكثر جلاء ووضوحاً . وعند صدور تصريح بلفور حاول الإنجليز جهدهم أن يخفوه عن العرب ، وأن يهونوا من أمره ، طبقاً للسياسة الانتهازية التي تجري عليها إنجلترا في أكثر المناسبات .

وقبل أن نوجه نقداً للسياسة العرب في هذا الشأن يجدر بنا أن نذكر الأمور الآتية :

أولاً : كانت الحركة الوطنية العربية في حالة تحفز وتوثب ، وتريد أن تعمل لتحرير البلاد العربية لكي يكون لها بعض الفضل في ذلك التحرير .

ثانياً : أن خبرة العرب بالسياسة الغربية وما اشتملت عليه من مراوغة كانت قليلة ، وتجاربهم مع الإنجليز محدودة .

ثالثاً : كانت المشكلة الوحيدة في نظرهم هي مطامع فرنسا في لبنان ؛ وكانوا يرجحون أن التحالف الذي بين إنجلترا وفرنسا قليل الخطر .

رابعاً : لعل أهم عنصر في الموقف أن العرب كانوا حسني الظن بالإنجليز إلى أبعد حد . ولعلهم اغتروا بمن شاهدوهم حولهم من الذين يعطفون على قضية العرب من أمثال لورنس . وهكذا مضى العرب في ثورتهم ، وتم للحلفاء النصر بمؤازرة العرب . ثم جاء أوان السلم

واستقرار الأمور ، ورد الحقوق المنصوبة إلى أصحابها ، فإذا العرب يفاجأون بالانتداب البريطاني على العراق ، والفرنسي على سوريا ولبنان ، والصهيونية في فلسطين .

٢ - مكافحة الاستعمار

ننتقل إلى المرحلة الثانية من السكفاح العربي ، في فترة تمزقت فيها وحدة البلاد العربية ، وأصبح لكل قطر عربي مشكلاته الخاصة في مقاومة الاستعمار البريطاني أو الفرنسي . فانصرفت جهود أبنائه إلى مكافحة قوى الظلم والظني في قطرهم الخاص ، وقد اعترفت معاهدة فرساي وملحقاتها للأقطار المتخلفة عن انحلال الدولة العثمانية بحقها في الاستقلال ؛ ولكنها فرضت عليها انتدابات لا تختلف في حقيقتها ومظهرها عن أقبح أنواع الاستعمار . فتار أبناء كل قطر لمكافحة العدوان الذي نزل بهم . واستنفد هذا الجهاد الشطر الأكبر من جهودهم . في هذه الفترة لم يكن بد من أن يقع عبء مكافحة الصهيونية على عاتق أبناء فلسطين أنفسهم ، وعلى الرغم من أن جميع الأقطار العربية كانت دائماً تعطف على قضية فلسطين ، وأن كثيراً من قادة الرأي في كل قطر عربي كانوا يشدون أزرها جهد طاقتهم ، فإن الظروف التي تقدم وصفها جعلت من المستحيل أن يقوم العالم العربي بجهود منظم مشترك لمكافحة الصهيونية ، في البضعة عشر عاماً التي أعقبت الحرب العالمية الأولى .

فالفضل الأول والأكبر في مكافحة الصهيونية في المهود الأولى من الانتداب ، راجع إلى أهل فلسطين أنفسهم . وقد أدوا بكفاحهم هذا إلى المروبة كلها - لا إلى فلسطين وحدها - أجل الخدمات ، ولا يستطيع المرء أن يملك نفسه من الإعجاب البالغ بالثعب الفلسطيني العربي ، الذي استطاع وحده في هذه السفين الطوال - دون أن يدركه السأم أو الكلال - أن يواجه قوات الشر والظلم الاستعماري الذي يمثله البريطانيون ، وعصابات الإجرام والخيانة التي تتمثل في الصهيونيين في فلسطين ، ومن وراءهم عصابات من الأنصار في أوروبا وأمريكا .

كانت وثيقة الانتداب التي وضعها الإنجليز بتحريض الصهيونيين ، ووافقت عليها بعد ذلك هيئة الأمم المتحدة ، وثيقة بادية التحيز والجور ، لا تسكاد بنودها الثمانية والعشرون أن تشمل على شيء سوى حقوق الصهيونيين ورفاهيتهم وهجرتهم ، وتحقيق مآربهم وأوطارهم . ولم يجر فيها ذكر للعرب ، ولم يرد فيها لفظ « عربي » إلا عند الإشارة إلى أن اللغة العربية إحدى اللغات الثلاث الرسمية . أما السكان العرب فلم يذكر فيها مرة واحدة ، بل اكتفى

في بعض البنود بمجرد الإشارة إلى « السكان الآخرين » لفلسطين . فكان من الواضح أن الانتداب لم ينشأ إلا لغرض واحد وهو إقامة الوطن الصهيوني ، وإحاطته بجميع ضروب الرعاية والعناية ، التي تكفل له التقدم والفلاح والسيطرة على البلاد وسكانها .

لو أن عرب فلسطين قبلوا هذه الحال بالرضى والسكون ، ولم ينهضوا لكفاح الصهيونية والاستعمار ، لما كان هنالك شك في انتصار قوى البنى والعدوان انتصاراً كاملاً سريعاً . ولكن عرب فلسطين لم يخضعوا ولم يستكينوا ، بل نهضوا منذ بداية الانتداب إلى الثورة على الضيم الذي يراد بهم ، واضطروا حكومة الانتداب والصهيونيين لأن يحسبوا لمقاومة العرب حسابها . ومن مظاهر كفاح العرب الفلسطينيين ما يأتي :

١ - الاتفاق التام بين المسلمين والنصارى . بحيث مُحِيت الاختلافات الطائفية بين عرب فلسطين تماماً ، وأصبحت فلسطين في هذا الأمر قدوة للأقطار العربية ، بل للعالم بأسره .
٢ - نهضة جديدة تتناول جميع الفواحي الأدبية والمادية . فأقبل سكان فلسطين على إنشاء الماهد العربية الخالصة ، وإنهاض الحياة العقلية والثقافية ، والإلحاح على دولة الانتداب بأن تنشأ المدارس العربية ، وأخذ فوج متزايد من أبناء فلسطين ينزح إلى لبنان والعراق والشام ومصر ، في طلب العلم .

ونهضت الصحافة العربية في فلسطين نهضة ملحوظة ، بحيث أصبح للعرب في فلسطين منبر يسمع منه العالم العربي صوت أبناء القطر الشقيق ، فيشاطرهم آلامهم وآمالهم .
وساحب هذا كله - في الناحية المادية - نهضة اقتصادية عظيمة الخطر . فعلى الرغم من أن العرب لم تأتهم تلك الإمدادات المالية التي كانت ترد إلى الصهيونيين من جميع أنحاء العالم ، أمكنهم أن يخطوا خطوات واسعة سديدة في الزراعة والتجارة والصناعة .

٣ - التنظيم السياسي . على الرغم مما نسمعه من أن عرب فلسطين قد انقسموا فرقاً وأحزاباً ، فإن مثل هذه الانقسامات الحزبية أمر لا مفر منه ؛ وهي من الظواهر التي تلازم الوعي السياسي في كل قطر من الأقطار . وحسبنا أن جميع تلك الأحزاب ليس لها سوى برنامج أساسي واحد ، لا يكاد يختلف ، وأنها كلها تسمى إلى تحقيق هدف واحد ، وهو التخلص من الخطر الصهيوني والحكم الاستعماري . ومهما قبل في نقد هذه الأحزاب ، فإنها كانت وسيلة لتنظيم الحياة السياسية ، وإيجاد أداة وقيادة للحركة القومية . وفي إبريل سنة ١٩٣٦ أمكن لهذه الأحزاب أن تتحد وأن تؤلف « اللجنة العربية العليا » ، التي تولت قيادة عرب فلسطين فترة من الزمن ، وقد أعيد تأليفها في الأعوام الأخيرة ، ولا تزال إلى

اليوم تؤدي لقضية فلسطين خدمات جليلة . ليس أقلها خطراً أنها هي الأداة التي أمكن بواسطتها إيجاد اتصال وثيق بين فلسطين وبين جامعة الدول العربية .

ويدخل في هذه المنظمات — وإن لم يكن ذا صبغة سياسية صرفة — إنشاء نقابة للعمال العرب ، أمكنها أن تعمل لرفع مستوى العمال ولحمايتهم من جور أحزاب العمال الصهيونية ، بل كان لها فوق ذلك نشاط سياسي ملحوظ .

٤ — الثورة على سلطات الانتداب . لعل أكبر مظهر للنشاط السياسي للشعب الفلسطيني العربي هو تلك الثورات المتتالية التي قام بها منذ بداية الانتداب إلى سنة ١٩٣٩ . ومن الصعب أن نفصل القول هنا في هذه الثورات ، وما كان لها من الآثار . وليس من الإسراف في شيء أن نقول إن عرب فلسطين في العشرين عاماً التي تلت الحرب العالمية ، رأوا أن آمالهم تحطمت على سخرة الشبهوات الاستعمارية ، كانوا في حالة ثورة دأمة ، وإن كانت ثورتهم قد اتخذت صورة أظهر وأكبر في بعض الأوقات ، وهذه الثورات لم تهدأ ولم تضعف على مضي الزمن ، بل ازدادت حدة وشدة على مر السنين ، حتى صارت في سنة ١٩٣٦ ثورة عسكرية منسقة ، بقيادة موحدة ، وقوات منظمة .

والعالم العربي لا يفهم الحق ما لم تؤيده مظاهر القوة . ولذلك اكتسب الشعب الفلسطيني العربي احترام الإنجليز وتقديرهم رغم أنهم . وأمكن في الوقت نفسه للعالم العربي أن يستيقظ وأن ينتبه لما يفرضه واجب العروبة من مساعدة فلسطين وموازرة سكانها .

لم تكن هذه الثورات في أي وقت من الأوقات تنتهي بانتصارات عسكرية للعرب ، ولكنها من غير شك كانت تنتهي في كل مرة بانتصارات سياسية ظاهرة لقضية العرب . فقد كانت حكومة الانتداب بعد كل ثورة ترسل اللجنة إثر اللجنة ، والبعثة بعد البعثة . لكي « تحقق » في أسباب « الاضطراب » . فكانت هذه اللجان جميعاً ومن غير استثناء ، تظهر في تقريرها ما للعرب من حقوق مهضومة ، وما يتعرضون له من الظلم بسبب نظام الانتداب الصهيوني . وعلى الرغم من أن حكومة بريطانيا لم تستطع — لوقوعها تحت الضغط الصهيوني — أن تنفذ ما أوصت به تلك اللجان ، فإن هذه التقارير كانت نصراً سياسياً كبيراً للعرب ، ومقياساً واضحاً لنجاحهم في كفاحهم السياسي ضد الصهيونية .

٣ — تأييد الأقطار العربية

تمثل الثورة العربية في فلسطين عام ١٩٣٦ بداية مرحلة جديدة في مكافحة الصهيونية ،

لأن بعض الدول العربية أخذت تساهم بنصيب متزايد من العناية والاهتمام بقضية فلسطين . لم يكن في وسع سوريا ولبنان ، بعد ، أن تشتركا رسمياً في هذا الجهاد الجديد ، لأن الانتداب الفرنسي كان لا يزال قائماً على القطرين . ولكن أقطاراً عربية أخرى تتمتع بنصيب وافر من الاستقلال ، في ظل حكومات عربية صميمة ، استطاعت أن تدخل ميدان الدفاع عن قضية فلسطين ، وأن ترسل الإرشادات اللازمة لمندوبيها السياسيين في بريطانيا ليلبذوا جهدهم في لندن أو غيرها من المواسم لنصرة تلك القضية ؛ وليدافعوا عنها في عصبة الأمم نفسها . ورأت حكومة إنجلترا أنها قد مضت في مناصرة الصهيونية إلى أبعد مدى ، وأن صوت العرب في فلسطين أصبح يعبر عن مشاعر العالم العربي كله ، وأن الانتداب بشروطه القديمة أصبح نظاماً مستحيل التنفيذ ، ولذلك رأت أن تنشئ عهداً جديداً ، ونظاماً جديداً ، يقبله العرب واليهود إذا أمكن ، ويشترك في وضعه الجانب العربي واليهودي من أهل فلسطين ، ومندوبون عن دولة مصر ، والعراق ، وبلاد العرب السعودية ، وشرق الأردن ، واليمن .

ودعت الحكومة البريطانية هذه الدول إلى إرسال مندوبيها إلى لندن . فكان ذلك أول اعتراف صريح من حكومة الانتداب بأن مسألة فلسطين هي قضية العالم العربي كله . وقد أرسلت الدول العربية مندوبيها لحضور هذا المؤتمر في شهر فبراير ومارس سنة ١٩٣٩ ؛ وكان رئيس وفد مصر سمو الأمير عبد المنعم ، ومعه علي ماهر باشا ، ووزير مصر المفوض بلندن ، ووزير مصر بالعراق (عزام باشا) ؛ وكان يمثل العراق نوري السعيد باشا ، بعاونه وزير العراق في لندن ، وقام الأمير فيصل آل سعود بتمثيل دولته ، بعاونه وزير المملكة السعودية المفوض في لندن .

وهذا التمثيل القوي للبلاد العربية برينا مبلغ اهتمام الأقطار العربية بقضية فلسطين ، وهذه الظاهرة لم ترد على مر السنين إلا تأكيداً ووضوحاً ؛ وفي مؤتمر لندن أمكن للحكومة إنجلترا للمرة الأولى أن تقابل العرب وجهاً لوجه في لندن ، وأن تصنى إلى آرائهم ، وأن تضع مقترحاتهم موضع التقدير .

ولعل حكومة إنجلترا كانت تدرك دائماً أن ما يتعرض له عرب فلسطين من الظلم كان له أثره السيئ في العالم الإسلامي عامة ، وفي العالم العربي بوجه خاص . ولكنها مضت في سياستها الصهيونية ولم تحاول أن تخفف من حدتها ، لأن تدخل الدول العربية لم يتخذ صورة قوية قبل سنة ١٩٣٦ ، ولأن ضغط الصيونييين على حكومة إنجلترا وبرلمانها كان أشد تأثيراً في سياستها ، وكان كثير من أولى الأمر فيها ممن استطاع الصيونييون استمالتهم أو شراء ضمائرهم .

وقد جعلنا نقطة التحول في سياسة إنجلترا ثورة العرب في فلسطين سنة ١٩٣٦ ؛ ومن الممكن تلخيص الأسباب التي حلت إنجلترا على محاولة تعديل سياستها الفلسطينية في الأمور الآتية :

١ - أن ثورة سنة ١٩٣٦ لم تكن ثورة على الصهيونيين وحدهم ، بل على حكومة الانتداب أيضا ، وقد اضطرت إنجلترا إلى جلب وحدات من الجيش من مصر وقبرص ومالطة ، وإلى بذل مجهود عسكري منظم .

٢ - أصبح العالم العربي شديد الاهتمام بشئون فلسطين ، يرى قضيتها قضيته ، سواء في هذا شعوب العالم العربي أو حكوماته ، وقد رأت إنجلترا نفسها أن تستعين برؤساء الدول في مختلف البلاد العربية لكي يبذلوا النصيح والإرشاد لعرب فلسطين ، حتى يكفوا عن أعمال العنف ، فكانت هذه الدعوة اعترافاً صريحاً بأن مسألة فلسطين ليست قاصرة على عرب فلسطين .

٣ - الأمر الثالث - ولعله أهم العوامل عند الإنجليز - التطور السيئ للحالة الدولية فقد قويت شوكة المحور ، واعتدت إيطاليا على استقلال الحبشة ، فأضعفت بذلك مركز إنجلترا في الشرق الأوسط . وأخذت الدعاية النازية تفضح السياسة البريطانية في فلسطين . واكفهر جو السياسة الدولية ، بحيث بات ينذر بخطر عميق ، حتى أصبحت إنجلترا تدرك أنها لن تكسب شيئاً بمجابهة العرب وممالة الصهيونيين إلى أقصى حد .

٤ - سار للعرب في ذلك الوقت صوت مسموع في عصبة الأمم وبات في وسعهم أن يستخدموا هذا المنبر العالمي للدفاع عن عروبة فلسطين . وفيما مضى كانت لا تصل إلى العصبة سوى الشكاوى التي ترسلها اللجنة العربية العليا ، وبعض الأفراد والهيئات في فلسطين . أما الآن فقد أصبح بعض الدول العربية أعضاء في عصبة الأمم يدافعون عن قضية فلسطين من داخل الهيئة لا من الخارج .

وهكذا تحوت قضية فلسطين - بصورة رسمية - بحيث أصبحت قضية العالم العربي . ولا بد هنا أن نشير إلى ناحية أخرى لاهتمام الدول العربية بأمر فلسطين . تلك أن قادة الدول العربية أصبحوا عنصراً هاماً في توحيد كلمة عرب فلسطين ، وإزالة ما بين الأحزاب الفلسطينية من أسباب الخلاف . وقد أوفدت الدول العربية غير مرة بعض مندوبيها لكي يسمى بين تلك الأحزاب ، ويدعواها إلى الاتحاد والائتلاف . وهذه الجهود كانت تنال دائماً حظاً كبيراً من التوفيق ، وستكون دائماً عاملاً هاماً في توحيد كلمة فلسطين .

وبعد أن شرد كثير من قادة الرأي في فلسطين وسجنوا أو نفوا إلى بلاد بعيدة ، ولم يبق بها منهم من نلتف حول جماعات الشعب الفلسطيني ، كانت قضية فلسطين أمانة في عنق الدول العربية ، وقد أدت هذه الدول الأمانة في قوة وإخلاص .

لم يسفر مؤتمر لندن عن اتفاق يرضاه العرب واليهود الصهيونيون . فأصدرت الحكومة البريطانية السكتاب الأبيض المعروف في شهر مايو سنة ١٩٣٩ ، وقد رسم هذا السكتاب السياسة التي آت حكومة إنجلترا على نفسها أن تتبعها في فلسطين ، وتشتمل هذه السياسة على ثلاثة عناصر رئيسية :

الأول : تحديد مهاجرة اليهود ، بحيث لا يدخل منهم فلسطين بعد ذلك التاريخ سوى ٧٥٠٠ مهاجر ، موزعين على خمس سنوات تنتهي في ٣١ مارس سنة ١٩٤٢ .

الثاني : منع بيع الأراضي لليهود إلى جهات محدودة حول القدس وتل أبيب وحيفا وبعض جهات أخرى .

ثالثاً : التدرج في نظام الحكم ، بحيث تنشأ في فلسطين حكومة موحدة في مدى عشرة أعوام

لا شك في أن هذه الوثيقة تمثل تراجعاً كبيراً في السياسة البريطانية ، لأنها للمرة الأولى استطاعت أن تعلن أن اليهود لن يسمح لهم بأن يكونوا أكثر من ثلث سكان فلسطين ، وأن معظم الأراضي يجب أن يظل في أيدي ملاكها من المزارعين العرب . ومما لا شك فيه أن هذه السياسة تعد نصراً مؤكداً للعرب ، وثمرات كفاحهم الطويل ، ولو أنها لم تحقق ما كانوا يطالبون به .

وعلى أثر مؤتمر لندن ، عقد مؤتمر عربي في القاهرة ، وعلى الرغم من أنه لم يكن أول مؤتمر عربي بفلسطين ، فإنه امتاز بأشتماله على ممثلين رسميين لحكومات الدول العربية . وقد أسفر هذا المؤتمر عن طائفة من المقترحات العملية لحل قضية فلسطين على أساس عادل . ولكن حكومة بريطانيا فضلت كتابها الأبيض والسياسة التي اشتمل عليها ، وقد أثبتت الحوادث أن العرب كانوا أبعد نظراً وأصدق سياسة من البريطانيين . وأهم نواحي الاختلاف بين السياستين أن مشروع القاهرة يقرر الشروع فوراً في إنشاء حكومة وطنية ديمقراطية في فلسطين ، وأن يقوم بين هذه الحكومة وبريطانيا تحالف مؤيد بمهادنة بين الطرفين . وبديهي أن إنجلترا لم قبلت هذا الحل في ذلك الوقت لما جرت على نفسها كل تلك الويلات

والكوارث ، التي انتهت بخروجها من فلسطين في صورة لا نستطيع أن نصفها بأقل من أن الصهيونيين — وهم صنائع الإنجليز — كانوا السبب المباشر في إخراجها منها .

في أثناء الحرب العالمية ساد نوع من الهدوء في فلسطين ، لأن العرب كانوا يراقبون باهتمام تنفيذ بريطانيا للسياسة التي نظمها الكتاب الأبيض ، ولأن العرب لم يكونوا يعطفون على دول المحور ، وأشفقوا من أن يخلفوا الدولة الانتداب مشاكل تعجزها عن متابعة الأعمال الحربية . وهذه السياسة نرى أثرها واضحاً في قلة تأييد العرب لثورة رشيد الكيلاني . غير أن الصهيونيين لم يهدأوا ولم يستكينوا ، وانغمسوا في أعمال الشغب والعنف في أثناء الحرب ، وكان نشاطهم الإجرائي يزداد ازدياداً مطرداً كلما قربت الحرب من نهايتها . هذا على الرغم من أن بريطانيا كانت تحارب النازيين ، وهم العدو الأكبر لليهود . أما نشاطهم السياسي ، فقد اتجه بوجه خاص إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث أمكنهم أن يكتسبوا عطف الرئيس روزفلت ، وأن يحرروا مجلس الشيوخ ومجلس النواب في واشنطن على النظر في اقتراحات خطيرة تؤيد الصهيونيين أشد التأييد .

قدمت هذه الاقتراحات في عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ . وفي المرة الثانية كان المعروض على الكونجرس الأمريكي أن يوافق على فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية من غير قيد ولا شرط ، وأن تتحول فلسطين بعد الحرب إلى دولة يهودية حرة ، وأن تستخدم الولايات المتحدة نفوذها في تحقيق هذا الهدف .

لم يكد هذا المشروع أن يثار في البرلمان الأمريكي ، حتى بادرت الدول العربية جميعاً — ومنها الآن سوريا ولبنان — بالاحتجاج الشديد لدى الحكومة الأمريكية ، وكان لهذه الاحتجاجات القوية أثرها . حتى اضطرت الجنرال مارشال رئيس أركان حرب القوات الأمريكية إلى الضغط على البرلمان الأمريكي بأن يعدل عن هذه المقترحات .

وفي أوائل عام ١٩٤٥ كان الرئيس روزفلت عائداً من مؤتمر « يالطا » ماراً بالبحر الأبيض المتوسط ، وقد رست به سفينته بمض الوقت في بحيرة التماسح بقناة السويس . وزاره هناك الملك عبد العزيز آل سعود ودار بينهما حديث ، احتلت فيه قضية فلسطين المكان الأول . وحسبنا أن نذكر هنا ما قاله الرئيس روزفلت نفسه في هذا الصدد ، في رسالته عن رحلته التي أرسلها إلى الكونجرس ، والتي قال فيها إن هذه المحادثات التي قضاها مع الملك عبد العزيز قد علمته عن مشكلة فلسطين أكثر مما كان يعرف في مدى سنوات عديدة ،

ومنذ عاد الرئيس روزفلت إلى أمريكا ظهر تحول واضح في موقفه من الصهيونيين ، فلم يعد يفتح لهم باب البيت الأبيض ، أو يستمع إلى شكائاتهم ومطالبهم التي لا تنتهى .

وبعد عودة الرئيس إلى واشنطن تلقى رسالة طويلة من الملك عبد العزيز ، والراجح أنه كان ينتظر مثل تلك الرسالة . وقد شرح فيها الملك العربى قضية فلسطين شرحا وافيا . وضمنها كل حجة دامغة تمزق دعاوى الصهيونيين شر ممزق . ولم يلبث أن جاء الرد من الرئيس روزفلت ، يعلن أنه لن يحدث أى تحول في حالة فلسطين السياسية ، دون الرجوع إلى رأى العرب واليهود ، وأن حكومة الولايات المتحدة لن تبدأ من تلقاء نفسها بالمطالبة بإحداث أى تغيير في فلسطين .

وقد وجه سائر ملوك ورؤساء الدول العربية رسائل في نفس المعنى والتاريخ إلى رئيس الولايات المتحدة ، وتلقت منه ردوداً مشابهة . ولاشك أن وفاة الرئيس بعد ذلك بقليل كانت خسارة كبيرة للعالم العربى وقضية فلسطين ، بعد أن جاهد قادة العرب جهادا صادقا لإفهامه قضية فلسطين على حقيقتها ، ومكنوه من أن يدرك تضليل الصهيونيين وبطلان دعايتهم .

وقد حاول الرئيس ترومان بعد ذلك أن ينكر أن مثل هذه الرسائل قد تبودلت ، وسولت له نفسه أن يزعم أنه يجهل وجود أمثال هذه المكاتبات . ولسكن الدول العربية اضطرتة إلى أن يعدل عن هذا الموقف الغريب ، وأن يعترف بوجود هذه الرسائل . ولم يكن ما يقبله العقل أن يجهل نائب الرئيس عملا خطيرا كهذا من أعمال رئيسه ، وكان بوسع لو شاء أن يستوثق من الأمر قبل أن يندفع في زعمه الباطل ، وأن يتخذ موقفا لم يكن له أن يرجع عنه ، وليس في مثل هذا الحادث ما يحفظ لرئيس كرامته أو يشجع على الثقة به .

٤ - قيام جامعة الدول العربية

لا شك أن قيام التعاون السياسى والاقتصادى والثقافى المنظم بين الأقطار العربية ، الذى يتمثل في جامعة الدول العربية ، كان ولا يزال أكبر أداة لمسكافة الصهيونية وأنصارها . ومن الممكن أن نقول إن نظام جامعة الدول العربية قد جاء بعد أن وجد ذلك التعاون فعلا ، وبعد أن كانت تلك الجامعة قائمة بالفعل ، وإن لم تكن قد أنشئت رسميا بعد ، فلم يكن هذا الإنشاء الرسمى سوى اعتراف بالأمر الواقع . بدأ هذا التعاون بصورة قوية منذ سنة ١٩٣٦ ثم أخذ ينمو نموا مطردا . وفى أثناء الحرب كان العرب فى جميع محافلهم وأنديةهم لا يتحدثون

في شيء أكثر من حديثهم عن وحدة البلاد العربية ، والصورة التي يجب أن تتخذها تلك الوحدة . وبدأت المداوولات في أثناء عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ ، وانتهت بوضع بروتوكول الإسكندرية ، موقعاً عليه من المندوبين الرسميين لخمس دول عربية ، وهي : لبنان والعراق وسوريا وشرق الأردن ومصر ، في ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ . ثم وضع الميثاق في ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ ، ووافقت عليه الدول العربية السابقة الذكر ومعها المملكة العربية السعودية ، كما انضمت إليها بعد قليل مملكة اليمن .

وفي كل من البروتوكول والميثاق أبدت الدول العربية عنايتها واهتمامها بقضية فلسطين . فجاء في البروتوكول قرار خاص بفلسطين ، ينص على أن فلسطين ركن مهم من أركان البلاد العربية ، وأن حقوق العرب لا يمكن المساس بها من غير إضرار بالسلم والاستقرار في العالم العربي ، ويطعن تأييد الدول العربية لعرب فلسطين بالعمل على تحقيق أمانهم المشروعة في قضيتهم العادلة .

أما الميثاق فقد عني عناية خاصة بالوضع السياسي لفلسطين ، والوسيلة التي يجب أن تتبع لضمان مساهمة سكانها العرب في أعمال الجامعة العربية . ولهذا الغرض اشتمل الميثاق على ملحق خاص بفلسطين ؛ ينص على أن استقلالها الدولي من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه . وأنه إذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة ، فلا ينبغي أن يكون ذلك حائلاً دون اشتراكها في أعمال مجلس الجامعة . ولذلك رأت الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية ، أنه نظراً لظروف فلسطين الخاصة ، وإلى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلاً ، يتولى مجلس الجامعة اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك في أعماله . كان تضمين الميثاق هذا الملحق الخاص بفلسطين أمراً على جانب كبير من الأهمية ، لأنه مكن عرب فلسطين من الاشتراك الرسمي في مداوالات الجامعة ولجانها ومؤتمراتها من جهة ، ومن جهة أخرى ساعد على توحيد كلمة الفلسطينيين وتنسيق نشاطهم وجهودهم بحيث تتمشي مع الإجراءات والسياسة التي يرسمها مجلس الجامعة .

ومنذ تمت الموافقة على الميثاق مضت جامعة الدول العربية في جهودها لفصرة فلسطين ، وازدادت هذه الجهود أضمافاً مضاعفة . ومن المستحيل أن نحيط بجميع هذه الجهود في هذا المقام المحدود . وعلى الأخص أن معظمها لا يزال ماثلاً في أذهاننا وأمام أعيننا . وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض النواحي الهامة لكفاح جامعة الدول العربية . من أجل فلسطين ؛ ولعل أهمها توحيد وتنسيق العمل في المؤتمرات الدولية عامة ، وفي اجتماعات هيئة الأمم المتحدة بوجه خاص .

كان لوجود جامعة الدول العربية فضل كبير في اعتراف الأمم المتحدة لهذه الدول بأنها مجموعة متضامنة تؤلف وحدة إقليمية ذات شأن . وقد ضمن هذا أن يكون للجامعة عضو يمثلها في مجلس الأمن . وفي سائر الهيئات واللجان التي يشتمل عليها نظام الأمم المتحدة . وكان لهذا الأمر أعظم الأثر في الدفاع عن قضية فلسطين ، وقد رأينا ذلك في وضوح ، ولا تزال نشاهده حتى اليوم ، في الدفاع المجيد الذي يقوم به مندوب سوريا في مجلس الأمن عن شئون فلسطين . والحقيقة أن ممثل سوريا في مجلس الأمن هو ممثل للجامعة الدول العربية كلها .

وانشتركت الدول العربية في مؤتمرات في لندن ، في أواخر عام ١٩٤٦ وأوائل عام ١٩٤٧ وبفضل جهودها الموقفة أمكن مكافحة النفوذ الصهيوني الذي كان يسيطر على حزب العمال . وأخذت حكومة العمال تنظر إلى قضية فلسطين نظرة أقرب إلى الحقيقة . ومن أهم الثمرات التي نشأت من اجتماع لندن ذلك المشروع العربي لحل قضية فلسطين ، الذي يمتاز بالهدوء والاعتدال ، ولا يستطيع منصف أن ينكر أنه أفضل حل لتلك القضية ، على كثرة ما عرض فيها من الحلول ، وما أثير حولها من الأراجاف .

وقد أمكن للجامعة الدول العربية أن تعني بالدعاية لقضية فلسطين ومساعدة المكتب العربي في إنجازه وأمريكا على النهوض بأعماله في هذا الميدان الهام ؛ كما أنها استطاعت أن تنظم الوسائل التي تتبع لمقاطعة الصناعات والسلع الصهيونية ، فأنزلت بالاقتصاد الصهيوني أفدح الخسائر .

وبديهي أنه لولا النشاط السياسي الذي اضطلعت به جامعة الدول العربية ، لما تيسر لها بذل ذلك المجهود الحربي المنظم ، لتحرير فلسطين والقضاء على المصائب الإرهابية فيها . وهو من غير شك أكبر مظهر للتعاون العربي ، بل لعله من أهم مظاهر التعاون في الميدان الدولي كله .

وهكذا نرى أن الكفاح السياسي ضد الصهيونية قد بلغ ذروته بإنشاء جامعة الدول العربية ، وما ترتب عليه من توحيد كلمتها وتنسيق جهودها .

محمد عوض محمد